

عندما يأتي الوطن ماشياً على قدمين

خليل فاضل

أكلته حرارة الشمس .

تمشى في الطرقة الفاصلة بين مدخل الدرج ونهايته طلباً لبعض النسبات التي تهب من البحر وتمر على الشجر علها تُلطف من وقع الشمس على خديهِ، لكنّه راح وجاء، وجاء وراح، تفحص كل السيارات، تأمل كل الناس، وكاد ضوء الشمس النافذ أن يأكل عينيه فمرّتا في دوامة البحث المضنية كعصفورين تاهتا على الأغصان .

مضى إلى الداخل، ومسح العرق من على جبهته ووجهه، مسح عليها بالماء البارد، لكن الشمس كانت قد لفحته، وأكله الهجير وتركه قلقاً منتظراً، يروح ويحي، حتى خاف وتطلع بعين مترقبة متوهجة إلى ما يمكن أن يحدث .

وهو في غدوه ورواحه، ما بين الخطوة والخطوة، وهو يكاد يدخل ويخرج، وهو على الحدّ الفاصل بين الرؤية والبحث، الاستسلام واليأس، وهو على حدّ السكّين يمشي في حذر، تقدّمت بخطواتها الرشيقة تدلف إلى عالمه في جراءة واقتحام؛ فطفرت من عينيه الدموع، وغصّ بها حلقه، قبل وجهها وجبينها ألف مرة، لم يترك فيه مساحة أو مكاناً إلا ولثمه، تمى أن تكون لهذا الوجه القدرة على الامتداد كما الأرض في وطنه، من الشمال إلى الجنوب، تمى أن يتسع ليسع المدن والقرى والنجوع، تمى أن يتمدد ويتورد وتطلع فيه النخلات، وتجري فيه البنات .

وبعدما شمّ رائحتها الحلوة، وتيقن أنها بكاملها لم يمسه شرّ، بلع ريقه؛ فمسحت وجهه وقالت:
- لقد أكلتك حرارة الشمس .

تألمته من رأسه حتى قدميه، ضمته كالطفل الغرير، تأملها من شعرها حتى رجليها، ضمها كالأب محتويها بين ضلوعه، وتخبّئها في صدره، ولما خلس حوار العشق تقدّمت إليه، أمسكت بيديه وسألته:

- إذن فلقد أتيت من بلاد الفرنجة مباشرة إلى بلاد العرب .
أوما برأسه علامة الإيجاب؛ فاستطردت قائلة:

- وهل كانت لديك نية للاستقرار هناك؟
هز رأسه علامة النفي .

ضحكت؛ فاهتزّ جسدها، واهتزّت بعض الشعرات على رأسها لتنحدر على جبهتها تزيئها، ثم سألته:
- ولم لا . . ألا تعجبك حضارة الغرب وبناته؟
ضحك وهو يتأملها قائلاً:

- لقد كنت هناك من أجل هدفٍ فتحقق، أخذت من حضارة الغرب ما قدرت عليه ولاءمني، وأما بناته فهن أشبه بتسائيل الزجاج .

ضحكت مرةً أخرى، محاولة إخفاء إعجابها بالرد، همهمت وهي تتدلّل كغصن تأوّه تحت رحمة الريح سائلة إياه:
- ألم تلحظ أنني قد اكتسبت سمرة؟

قبل أناملها العشر في حركة خاطفة وقال بسرعة:
- لم أتمكّن من الاستقرار في الوطن؛ فجاء الوطن إليّ يمشي على قدمين .

أخذت عينها شكل نفرتيني، وكان جمال بشرتها يقارب روعة القدماء، كان جمالاً بسيطاً متمكناً يظهر في التعابير والخلجات، يبين في القسّات، يخرج من الكلّيات دافئاً مستكيناً، ويأخذ من مخزون فياض يرقد تحت الجلد .

شمّ في رائحتها النيل والبحر الأبيض والأحمر، ورأى قنساء السويس تجري مع أنهار الدموع من عينها، ورأى البنات مهرولات إلى حجرات الدرس، ورأهن يجتمعن القطن، سمع حوار الفلاحين وشرب شايم الأسود .

رفعت هامتها إلى فوق فظهرت له شاحخة كالسُد، ابتسمت فابتسم، لكن رغم كل شيء كانت حرارة الشمس قد أكلته .

أمسكت بذراعه وقرأت صفحةً وجهه قائلةً:
- ألم تراودك أبداً فكرة الاستقرار في الوطن؟

صاح بسرعة:

- بلى . . لكنني كنت أتلقّى الصدمات تبعاً .

قالت:

- كلّ الناس سواسية، والضغط عليهم واحدة، وأنت... في وضع أفضل نسبياً، عموماً الأرض لك شئت أم أبيت.
قال:

- هذا صحيح، لكنّ التوقيت يحتاج إلى تخطيط.

ابتسمت وقالت:

- والتأجيل يمتدّ ويمتدّ الأيام لتطول، والسنوات لتصير دهرأ، أنت تحتاج إلى الوطن أكثر مما يحتاج هو إليك.

ضحك متأملاً هيبتها المتمكّنة الراسخة، ووجهها ذا التقاطيع الخاصة النافذة، تذكر ورد النيل وعباد الشمس، لوز القطن وحبّات الفول، قال:

- نعم لذا تحايلت على الدنيا فأق الوطن إليّ حتّى أذهب إليه يوماً ما.

همست في أذنه وهي تستعدّ للرحيل:

- لا تتأخّر أبداً في العودة إلى الوطن حتّى لا تأكل حوافك

الغربة، وتصيح كورق القطن يأكلك الدود.

تفزع قليلاً، تأملها كثيراً، قالت وهي تنزل الدرج:
- تذكر أنّك قد تحلّيت عن كثير من العادات.

قال وهو ينحني على السور المقام:

- لكنّي لم أزل أتمسك بالتقاليد.

قالت:

- لا جدال ولا شكّ في ذلك، لكن أكلت وجهك حرارة الشمس.

وضع كلتا يديه على خديّه، كان ضوء الشمس الباهر يكاد يخطف بصره، وكانت قد مضت، مضى عنه الوطن كما يمضي، بعدما جاء يمشي على قدمين، كان يشاقق إليه في اللحظة التي يتركه فيها، وكان مخدراً في عمق، رأسه مليء بالأفكار، تطلّع إلى الأفق فشتم رائحتها، رائحة البحر المالح والنهر العذب والقناة التي تروي الأساطير.

الدوحة في ١٦/٦/١٩٩٢

